«لقد لقيتُ من قومك ما لقيت»

عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ذات يوم: هل أتىٰ عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وكان أشدّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبني إلىٰ ما أردْتُ، فانطلقت وأنا مهمومٌ علىٰ وجهي، فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب[1]، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئتَ فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين[2]؟.

فقال النبي ﷺ: بلْ أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبدُ الله وحده لا يُشرك به شيئاً»[3].

نعم يا سيدي يا رسول الله:

لقد تحمّلت في سبيل الدعوة إلىٰ الله الكثير، وهذه صورة من صور العذاب والمعاناة التي تعرّضت لها، إنها رحلة شاقة، حيث خرجتَ من بلدك مكة، وذلك من أجل أن تدعو الناس في مكان آخر إلىٰ الله سبحانه.

ولما وصلت إلىٰ الطائف ودعوت القوم، ما كان منهم إلا التكبّر والتجبّر

---

(١) هو ميقات أهل نجدٍ تلقاء مكة المكرمة.

(٢) هما جبلان محيطان بمكة. أحدهما جبل أبو قبيس.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٣٩، صحيح مسلم: ٣/ ١٤٢٠.

والعناد والاستهزاء ، فأرسلوا إليك الغلمان والمجانين ، وراحوا يرمونك بالحجارة والعظم والشوك ، وأخرجوك من الطائف ، وأدمَوْا قدميك . . . ! ! .

ولما وصلتَ إلىٰ بساتين الطائف ، جلست لترتاح قليلاً ، وهناك رفعتَ دعاءك إلىٰ رافع السماء بلا عمد سبحانه وتعالىٰ ، والذي جاء فيه : «اللهم إليكَ أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي ، وهواني علىٰ الناس يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ بعيد يتجهّمني[1] أم إلىٰ عدوٍّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقَتْ له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخط ، لك العتبىٰ حتى ترضىٰ ، ولا حول ولا قوة إلا بك»[2] .

ولمّا عرض عليك جبريل أن يقوم ملك الجبال فيطبق عليهم الجبلين ، رفضت ذلك من باب أنك الرحمة المهداة ، فصلاة الله وسلامه عليك في كل وقت وحين :

يا سيّد الكون في ذكراك تذكرة ... وفي رحابك يسمو نظم أشعاري
من أنقذ الكون من شركٍ يدنّسه ... وخلّص الناس من تأليه أحجاري
من نظّم العرب من فوضىٰ ومهزلةٍ ... وطهّر الأرض من رجسٍ وأوضارِ
من لقّن الناس أخلاقاً مهذبةً ... وشاد للناس ديناً غير منهارِ
من حرر العبد من رقٍ يكبّله ... وحرّر العقل من سخفٍ بأفكارِ
من علّم البيد قرآناً يرتّله ... فتنصتُ الجنّ إعجاباً بتذكارِ

* * *

(١) أي : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .
(٢) عيون الأثر : ١/ ١٣٤ ، سيرة ابن هشام : ٢/ ٢٨ .